مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد5، العدد11، (سبتمبر2017) EISSN : 2600-6405

الطقوس الدينية المصاحبة لبناء المعابد في حضارة وادي الر افدين

الأستاذة: سامية معوشي
أستاذة مساعدة قسم-أ-
جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة

الملخص:

حظيت عمارة المعبد في حضارة وادي الرافدين بقدر كبير من الأهمية باعتبارها بيت الإله، والملك بطبيعة كونه نائبًا عن الإله أو ممثلاً له، يُعد مسؤلاً عن الشؤون الدينية في مملكته، فإليه يعود أمر العناية بالمعابد وتشييدها أو ترميمها، وذلك نتيجة للإعتقاد السائد آنذاك بأن البشر خلقوا أصلاً لخدمة الآلهة، وأن الحاكم يجب أن يكون أول خدمها، وعليه فقد كان بناء معبد جديد أو ترميمه يتوج بإقامة مجموعة من الشعائر والأعمال الدينية من أجل التأكد من أن رغبة الإله الخاص بذلك المعبد قد حُققت على الوجه الأكمل.

Résumé :

L'architecture du temple dans la civilisation mésopotamienne était d'une grande importance considérée comme la maison de Dieu, et le roi, en vertu d'un représentant de Dieu, est responsable des affaires religieuses de son royaume. alors que les êtres humains ont été créés à l'origine pour servir les dieux, Ainsi, la construction ou la restauration d'un nouveau temple a été couronnée par l'établissement d'une série de rites, et d'œuvres religieuses afin de s'assurer que la volonté de la divinité de ce temple a été pleinement réalisée.

مقدمة:

لقد كان المعبد وهو بيت الإله أفخم المباني في المدينة وأعظمها زخرفًا وأبّهةً، وقد تباهى الملوك وبدافع من عمق إيمانهم وتقواهم بأنهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل جلب أمهر الصنّاع وأجود المواد من أجل بناء معابد الآلهة[1]، فقد جُلبت الأخشاب الثمينة من الجبال البعيدة لبنائها، كما أُنفقت الأموال الطائلة لتزيينها بالحجارة الثمينة وتعطيرها،

ومما لا شك فيه أنه تم تشغيل أمهر الصناع والبنائين من جميع أطراف بلاد الرافدين وغيرها في تشييد تلك المعابد الضخمة[2]، كما تتوفر كتابات كثيرة جدًا تشير باستمرار إلى مثل هذه النشاطات العمرانية، فقد جرى تصوير ملوك في منحوتات برونزية أو صخرية وهم يحملون على رؤوسهم سلال الطابوق إلى المعابد المشيدة حديثًا[3].

كان الطين هو المادة الرئيسية الأولى التي اعتمدها العراقيون في بناء معابدهم، كونه الأوفر في البلاد والأكثر اقتصادًا والأقل كلفة، والأكثر قدرة على التطويع للتشكيل (التحويل)، بالإضافة إلى استخدام الطين الرائب (الملاط)[4] في اكسائها[5]، ذلك لأن إدامة البناء السنوية بمادة الطين كان يضمن سهولةً في تقنيات العمل، إذ لا يحتاج الطين الجديد إلى إزالة الطين القديم، وإنما يكفي إضافة طبقة جديدة فوق القديمة التي تعاني من الاندثار الموسمي، وفي العصور الحضارية التي بدأت فيها المدن في النشوء والتكامل، بدأ الإنسان بتنويع المواد المستخدمة في البناء سواء في أنواعها أو في طرق تصنيعها أو في أشكالها[6]، فاستخدم اللبن المقطوع في القوالب على نطاق واسع في البناء بحجوم وأنواع متنوعة[7].

غير أن كتل الطين واللبن ما لبثت أن اختفت بالتدريج، وحلت محلها طريقة للبناء تستخدم اللبن المعروف باسم "اللبن المحدّب المستوي"، وهو بالأصل من النوع المتوازي المستطيلات سطحه الأعلى محدّب[8]، ومن أساليب الإنشاء بهذا النوع من اللبن ذو المستوي المحدب هو بناؤه في صفوف عمودية وليست أفقية، بمعنى أصح تُبنى مائلة قليلاً وباتجاه واحد، بينما تُبنى في الصف الذي يليه إما بنفس الاتجاه أو مائلة باتجاه آخر، فيشكل من كل صفين منظر يشبه العمود الفقري للسمكة (انظر الشكل 01).

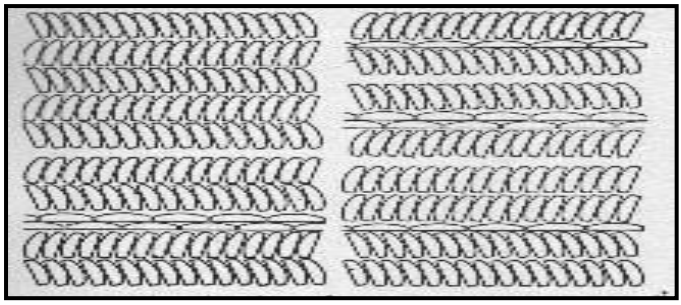

الشكل01: قوالب اللبن المستوي المحدب

وليد الجادر، **العمارة**، حضارة العراق،ج1، دار الحرية، بغداد، 1985، ص86.

وتكون في العادة قوالب الطوب المحدبة المستوية بحجوم وقياسات غير موحدة، أما لون اللبن فيتبع عادة نوعية الطين ونوعية المواد المخلوطة، التي تتكون من نسبة من مواد عضوية تصبح نافعة حين تفسخها في تماسك تربة اللبن وزيادة صلابتها، وأما المادة التي استخدمت للشدّ فكانت الطين بالدرجة الأولى، كونها الوسيلة الوحيدة لتسوية الفراغات الكثيرة الحاصلة في الجدران نتيجة عدم تساوي سطوح اللبن[9]، ولكن في الفترات اللاحقة عاد المعماري الرافدي إلى استخدام اللبن المتوازي المستطيلات ذي السطوح المستوية، واستمر هذا الاستخدام عبر العصور حتى وإن تغيرت الأشكال والأحجام، وأما مادة الجص (الجبس) فقد استخدمت في أول الأمر في تسييع مخازن الغلال وفي تبليط أرضياتها، مما يضفي على المبنى نصاعة وبهاء، وكان هذا الطلاء يُجدّدُ بين الحين والآخر[10].

وإلى جانب استعمال الجص استخدم الرافديون الإسفلت (القار)[11]، كمادة إكساء عازلة للمياه في الأرضيات بالدرجة الأولى، كما استخدموه في تكسية أحواض الماء في ساحات البيوت والمعابد، ونظرًا لندرة الجبال الصخرية في حضارة وادي الرافدين وخاصة في الوسط والجنوب مقارنة بالقسم الشمالي، فقد اقتصر استخدام الحجر في بناء الأسس والتغليف[12]، ولتغطية العجز في توفير هذه المادة الهامة كان يتم جلبها من منطقة الشمال السوري، كما كان يُأتى بحجر الأوبسيديان الشفاف بشكل خاص من الجبال الأرمينية، واللازورد من أفغانستان البعيدة عن بلاد الرافدين[13].

أمّا الأخشاب فقد عرف العراق القديم أولاً القصب والبردي، وقد استخدمها كحزم تُربط إلى بعضها لرفع السقوف الحصيرية، كما عرفها كمادة رابطة توضع بين صفوف اللبن، فتخلق نوعًا من الطبقات المانعة لأية شقوق أو انهيارات قد تحدث في الجدران، كما استخدم القصب المشقوق والمضغوط ثم المنسوج على شكل حصير في التسقيف[14]، واستخدم كذلك خشب الأرز والصنوبر في تسقيف المعابد، ولأن المنطقة تفتقر إلى هذه المادة الرئيسية للبناء، فليس غريبًا والحال هذه أن تفردّ قوانين في الإيجار والاستئجار والإرث خاصة مطولة تعالج موضوعات المواد المصنعة من الخشب[15].

ولما كانت عمارة المعبد تعد على قدر كبير من الأهمية، فقد كان يتوجب عند بنائها أو إعادة ترميمها أداء طقوس دينية معينة، وقد كانت هذه الطقوس في المراحل السومرية الأولى تجري على أساس وضع أشياء في المعابد والمباني ضد العناصر الشريرة، كالتعاويذ والتماثيل ورموز الآلهة والمسمار الحجري الذي يوضع في هذه الأساسات منقوشًا

بالتعاويذ والرموز، غير أن طقوس البناء تطورت في مرحلة لاحقة وأخذت ترافقها الأضاحي[16]، وكان الإله يفصح عن رغبته في بناء معبد جديد له من خلال الأحلام التي يراها الملك أو الكاهن في منامه، ومن أقدم الأمثلة وأكثرها تفصيلاً في هذا الشأن الحلم الذي روى تفاصيله "جوديا" أمير سلالة لجش الثانية في حدود(2120ق.م)[17]، وكان الإله "أنليل" هو من تقدَّم بالوحي الإلهي إلى الملك جوديا بخصوص بناء معبد لجش، وكان من قام بنقل الإرادة الإلهية العليا إلى ممثلها على الأرض إله المدينة المحلي "نينجرسو"، وذلك عن طريق الأحلام[18].

وقد تم تدوين تفاصيل هذا الحلم في قصيدة طويلة تم الكشف عنها في لجش، وهي تحتوي على أربعة وخمسون عمودًا، ألّفها أحد شعراء معبد "أنينو" تكريمًا لذكرى إشادة "جوديا" لهذا المعبد[19]، فقد رأى جوديا أن الأمور ليست على ما يرام عندما لم يحدث الطوفان الموسمي الذي يبعث الخصب في الأرض في ربيع كل عام: «لم يرتفع ماء الطوفان، ولم يظهر كالمعتاد في مدينتي، لم يَسْطَعْ الماء العالي، ولم ير بريقهن، ولم يجلب طوفان أنليل الماء الجيد كالدجلة...»[20].

ولمّا أوى "جوديا" إلى المعبد رأى رؤيا(حلم)، تمثّل له معبوده فيها على هيئة إنسان عملاق يلبس تاجًا إلهيًا وله جناحا طير عظيم، وجسم ينتهي أسفله بموجة فائضة "موجة الطوفان"، وعلى يمينه ويساره أسود صاغرة، وقد أمر هذا العملاق "جوديا" ببناء معبده، ولكنه لم يستطع أن يفهم معنى كلماته[21]، وانبلج النهار في الحلم وإذا بامرأة تظهر ممسكة بمرقم ذهبي تتفحص لوحًا من الصلصال صورت عليه السماء ذات النجوم، ثم ظهر بطل يمسك بلوح من اللازورد رسم عليه مخطط دار، وكان يضع كذلك أحجار الآجر في قالب الآجر الذي انتصب أمام "جوديا" مع سلة نقل، وفي الوقت ذاته كان حمار يضرب بحوافره الأرض بنفاذ صبر[22]، وبما أن معنى الحلم لم يكن واضحًا لجوديا، عزم على استيضاحه بمشاورة الإلهة "نانشة" لبراعتها في تفسير الأحلام، فأوضحت له هذه الأخيرة بأن الإله المتوج هو أخاها الإله "نينجرسو"، الذي أمره ببناء معبده من جديد "أي-نينّو"، وأن انبلاج النهار (الشمس) يعني إله"جوديا" الشخصي "نين جيزيدا"، وأن السيدة ذات القلم واللوحة هي "نيسابا/نيدابا" إلهة الكتابة، التي سوف ترشده لبناء الدار وفق النجوم المقدسة، والبطل الذي يحمل في يده لوحًا من اللازورد –يعني المهندس- الإله "نين-دوب" الذي يرسم مخطط المعبد، وأما عربة النقل وقالب الآجر الذي وضع فيه آجر القدر، فهما علامة على أحجار الآجر لمعبد "أي-نينّو"، والحمار

الذي يضرب بحوافره الأرض بنفاذ صبر يعني "جوديا" نفسه، وهو فاقد الصبر على تنفيذ مهمته[23].

غير أن الأمر لم يتضح بعد بالضبط، ما نوع المعبد الذي يبغيه نينجرسو؟ ما الذي يجب أن يحويه؟ ولذا تشير الالهة نانشة على جوديا باستيضاح الإله ثانية، ولكن عليه أن يضع عربة حربية جديدة لنينجرسو ويزينها بكل غال وثمين، ويأتي بها إلى الإله مع قرع الطبول[24]، وبعد أن يقضي جوديا في المعبد عدة ليال عبثًا، يظهر له نينجرسو أخيرًا، وينص عليه تفاصيل الوحدات التي يتألف منها المعبد، وهنا يعِدُ نينجرسو جوديا بأنه إذا بدأت يمينه في تأسيس معبده فلسوف ترق الصرخة إلى السماء من أجل الرياح والأمطار، ولسوف تُسقط السماء حينئذ فيضها بعد أن يضع الرب قدمه على الجبل العالي "جبل العاصفة"، ولسوف ينزل الفيضان من قمة مقدسة شاهقة الارتفاع[25].

وحالما أفاق جوديا من نومه وبعد أن قام بالتضحية ورأى فألها ميمونًا، شرع بإنجاز الطقوس تمهيدًا لابتداء العمل وتحقيق رغبة الإله، وفي هذا يقول الرقيم الطيني:«...طفق يطهر المدينة المقدسة ويحيطها بالنار، وجمع الطين من مكان بالغ الطهر، وفي مكان نظيف صنع الآجر ووضعه في القالب، اتبع الطقوس بكل جلالها، فنظف أسس المعبد وأحاطه بالنيران ودهن المصطبة بعطر زكي...»[26]، وقد روى كتبته على لسانه اهتمامه باستيراد الأحجار مختلفة الأنواع والألوان، ومعادن مختلفة القيم والأخشاب عن طريق البر والبحر من مختلف أصقاع البلاد المجاورة، كما استقدم اليد العاملة من مناطق بعيدة فمن:« عيلام جاء العيلاميون، ومن سوسة السوسيون، وجمع من ماخان وملوخا الخشب من جبالها...، وفتح جوديا كاهن نينجرسو الأعلى ممر داخل جبال الأرز، فقطع أشجارها بفؤوس كبيرة...، ثم جيء بالحجارة كتلاً كبيرة...، وجلبت عدة معادن ثمينة...، فمن جبال النحاس في كيماش، وجيء بالذهب من جبالها في شكل تراب...، استخرجوا الفضة من جبالها، وجاؤا بالحجر الأحمر من ملوخا بكميات كبيرة...»[27].

وأخيرًا ابتدأت عملية البناء، وأكمل المعبد المختار في غضون سنة واحدة، وأصبح جاهزًا لدخول الإله إليه، وبمساعدة عدد من الأرباب نظف جوديا المعبد، وأعدَّ الطعام وزيت القربان وخمره والبخور للاستخدام في مراسيم الاحتفال بدخول الآلهة في بيتهم، ومرة أخرى نظف جوديا المدينة أخلاقيًا ومناقبيًا، وشرع في تعيين مجموعة كاملة من الآلهة للعناية بالمعبد: حارس الباب، رئيس خدم، حاجب،...الخ)، وتلت ذلك سبعة أيام

من الاحتفال توجتها وليمة لكبار الآلهة "آنو" و"أنليل" و"نينماه"[28]، وعلى الرغم من أنه لم يبق أي أثر لهذا المعبد الفخم، فإن واحدًا من التماثيل العديدة لجوديا والتي عثر عليها في هذه المدينة، يُصور الأمير السومري جالسًا بوقار كباني للمعابد المقدسة ويداه مضمومتان إلى الصدر، وتظهر على ركبتيه رقعة مرسوم عليها مخطط المعبد الذي رسمه الإله نينجرسو على حجر من اللازورد والذي رآه جوديا ضمن مارآه في حلمه السابق الذكر[29] (انظر الشكل 02)، وبعد مضي مايزيد عن ألف وخمس مائة سنة على عهد جوديا، يذكر الملك "نابونائيد" كيف أنه هو الآخر جاءه الوحي الإلهي في الحلم، وأمره ببناء معبد لإله القمر "سين" في حران[30].

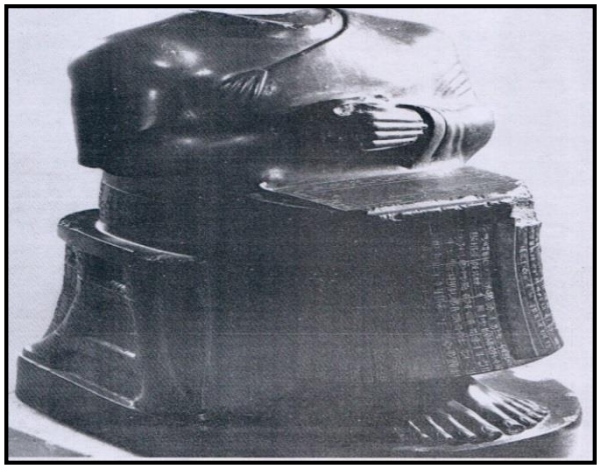

الشكل02:مخطط معبد الاله ننجرسو مرسوم على ركبتي الملك جوديا

Gustave Fougères,Op. Cit,P111.

وبالإضافة إلى تماثيل الملك جوديا التي تعجّ بها معابد مدينة لجش، والتي تحمل نقوشًا كتابية تشهد على جليل أعماله في خدمة الآلهة، وكدليل على التقوى وطاعة الآلهة لبناء معابدها، فقد كشف التنقيب عن عدد آخر من التماثيل والمنحوتات التي تصور الملك أو الحاكم وهو يحمل على رأسه مواد من البناء في طاسته تحتها الواقية المستديرة[31]، فعلى سبيل المثال نجد صور الملك أورنامو مع إله القمر "نانا" توضح وقوف الملك خلف الإله وهو يحمل أدوات البناء (انظر الشكل رقم03).

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الشكل03: الملك أورنامو وهو يحمل سلة مواد البناء لتشييد المعبد.

أحمد سوسة، **تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية المكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية**، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، ص395.

كما تم الكشف عن لوح نذري آخر يطلق علية لوح تأسيس"أورنينا" أو "أورنانشي"، وفيه يظهر "أورنينا" ملك لجش مرةً واقفا حاملاً سلة البنائين فوق رأسه، والأخرى وهو جالس وفي يده كأس، وعلى الرغم من أنه ليس ثمة ما يوضح حقيقة المشهد، إلا أنه من المرجح أنه يمثل وضع حجر الأساس لأحد المباني المقدسة، ثم ذلك الحفل الذي يأتي في إثره[32].(انظر الشكل04).

الشكل 04: الملك أورنانشة واقفًا وعلى رأسه سلة البنائين لبناء المعبد.

ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص208.

ويظهر من خلال تفاصيل حلم جوديا، ومن نصوص دينية أخرى أن هناك جملة من الإجراءات التي كان يتوجب انجازها قبل الشروع في بناء معبد جديد أو ترميمه، كما أن هناك ثمة التزامات يتوجب على الكاهن المشرف على الطقوس التقيد بها[33]، وقبل هذا وذاك ومن أجل أن يكون المعبد مقبولاً من طرف الآلهة، كان ينبغي أن يكون صورة طبق الأصل للصورة غير المادية التي يتخذها في السماء[34]، فمعبد الإيساجيل الذي بني من قبل الملك "نابو-بولصر" ما هو إلا صورة للمعبد الذي كانت الآلهة قد بنته في السماء، ولقد جاء في الرقيم السادس من ملحمة الخليقة تصوير لهذا الاعتقاد نصه:

«...وسعى الأنوناكي وراء المواد
ظلوا يعجنون الطوب مدى عام كامل
ولما جاءت السنة التالية
رفعوا عاليًا الـ "ايساجيلا" مساويًا لـ "أبسو"
بنوا برجا طبقيا عاليًا كـ "أبسو"
وجعلوا به مسكنًا لـ "مردوخ" و "أنليل" و "أيا"...»[35].

لقد جرت العادة أن يبنى المعبد الجديد على الموقع نفسه الذي كان يشغله المعبد القديم، لأن المواقع التي تُشيد عليها المعابد داخل المدن مقدسة، ولذلك لا تُترك أو تُهمل، وإنما تبقى في مواقعها ويُجدّدُ بناؤها بين فترة وأخرى، ومن الشواهد الأساسية على استمرار تشييد المعابد في نفس مواقعها مجموعة معابد أريدو الثمانية عشر، والتي تبدأ من بداية عصر العبيد وتستمر حتى تشييد الملك السومري أورنامو زقورة فوقها[36]، كما كان يَجرى تنظيف المدينة وإشعال النار حولها، وإشعار سكانها بوجوب الالتزام بالمثل والقيم الاجتماعية السامية؛ بحيث لا يحدث ما يعكّر صفو ذلك اليوم الذي يضع فيه الملك الأسس الجديدة لمعبد الإله[37]، وكان هدم الجدران وإزالة الأنقاض وتنظيف الموقع من الأعمال التي يتوجب انجازها[38]، وبعد ذلك يقوم العراف بتحديد يوم السعد من الشهر يكون مناسبًا لإشعال النار في المساء وتقديم القرابين، ثم يبدأ الكاهن المختص من صنف الـ "كالو" بإنشاد الترانيم على أنغام المزمار، ومن ثمّ يرفع يديه متضرعًا أمام الإله داعيًا بالتوبة والغفران.

بعد ذلك يُعمد إلى استظهار الأسس القديمة للمعبد، وحفرها واستخراج مافيها من آجر ومواد بنائية أخرى وصولاً إلى الأرض البكر، ويظهر أن عدم انجاز هذا العمل على الوجه الأكمل كان مدعاة لغضب الإله، وبالتالي لسقوط المعبد خلال سنين قلائل، ولهذا

السبب يذكر الملك نابونائيد في أحد نصوصه عن تجديد معبد إله الشمس في سيبار فيقول:« لقد استظهرت أسس ذلك المعبد التي كان قد أرساها "نرام-سين"، وبالتالي لم ير ملك من قبلي لثلاثة آلاف ومائتي سنة خلت...»[39]، وبعد أن يتمّ استظهار الأسس القديمة، يُشرعُ في تطهير الموقع الذي يُراد بناء المعبد فيه بإشعال النار حول الأسس ورشها بالعطر، وكانت فلسفة التطهير تجري على أساس أن المكان محاط بالشرور والأرواح الشريرة، وبالتالي لابد من مواد دالّة على الآلهة لكي تطهر هذا المكان، وكان سكب السوائل (الزيت والماء بشكل خاص) هو السبيل إلى ذلك بالإضافة إلى الحرق[40].

بعدها يقوم الملك بقطع اللبنة الأولى على طقوس دينية معينة، فبعد أن يغتسل ويرفع الصلوات ويقدم القرابين إلى الآلهة، يأخذ واقية الرأس المستديرة التي توضع تحت طاسة البناء، ثم يأخذ القالب الخاص بتحضير اللبن الذي كان يصنع عادة من الخشب، ويقوم الملك بدهن القالب بالعسل والزيت النقي، ويتناول طاسة البناء ويبدأ بتحضير الطين، ومن ثمّ يصبُّه في القالب الذي جرت العادة على حفظه في المعبد بعد الإنتهاء من صنع اللبنة الأولى، وبعدها تؤخذ اللبنة لتوضع في العراء تحت أشعة الشمس حتى تجفّ، وعندئذ يأخذها الملك ويضعها في الأساس معلنًا بداية العمل في بناء المعبد[41]، وكانت العادة أن يُدون على أجرة أساس المعبد اسم الملك الذي أمر ببناء المعبد، وذكر ألقابه واسم البناء المزمع بناؤه أو تجديده، وكانت الكتابة تتم من طرف "كاتب قالب اللبن" (Ba naalpati)، وكانت تتم بواسطة الطبع باستخدام قالب خاص حفرت عليه الكتابة بشكل مقلوب، فإذا ما وضع القالب على الآجر قبل الحفر تركت الكتابة بشكل موجب[42].

أما في حالة تداعي وانهيار معبد مخصص لإله، كان يستوجب الندب والنواح من قبل المكلف بمرافقة طقس الترميم وإعادة البناء وتلاوة الصلاة الملائمة لمثل هذه المناسبة، ويُعد الكاهن النداب "الكالو" المسؤول عن إقامة هذه الطقوس، وإليه يُعهد باستخراج أجُرَّة أساس المعبد المنهار، ووضع أجُرَّة أساس جديدة في مكانها[43]، وأما عن التعليمات المعطاة للكالو بهذه المناسبة فنصها كما يلي:

[.....]

على[المكلف بإشادة] هذا البيت

ارتداء كساء طاهر

وعليه أن يلبس في يده سوارًا من القصدير

وأن يستعمل فأسًا من الرصاص

ثم ينتزع [أجرة الأساس السابقة]
ويتلو تفجّعًا على المعبد
ويطلق تحسّرات[44].

وكانت توضع هذه الأجرة في مكان سرّي، وذلك قبل تخصيص أجرة أساس المعبد الجديد[45] ويواصل النص فيقول:

«...ومن محرقة البخور على الكاهن الكالو

نشر وتصعيد روائح التبخير بينما يتم على الأجرة، نثرُ عسل وسمن دسم وحليب وجعّة من النوع الممتاز، وخمر وزيت حلو»[46].

بعد ذلك يعمد الكاهن -الكالو- إلى تلاوة صلاة على الأجرة نصها:

« عندما آنو، خلق السماء
وخلق نوديمُود الأبسو مقره
استخرج أيا من الأبسو حفنة من الصلصال
وخلق الإله كولا للإشراف
على تجديد [المعابد]
ثم خلق المقاصب وغياض الشجر
(لتلبية احتياج) مهمة بنائها
ثم خلق الآلهة نين-إيلدو ونين سيموج
وأرازو لأعمال إنهاء [بنائها]
ثم خلق الآلهة جوشكين-باندا ونين-آجال
ونين-زاديم ونين-كورا [لتنفيذ] الأعمال فيها؛
ثم خلق الحبال والبحار من أجل[...] كل [...]
ومن اجل [...] إنتاجها الغزير بالتقدمات الغذائية
ثم خلق الآلهة أشنان ولاهار وسيريس
ونين-جيزيا ونين-سار وآ[...]
لإنماء الدخل المنتظم في المعابد
ثم خلق أمون-مو-تام-كو وأومون-مو-تام-ناج، للإشراف على إعداد التقدمات
ثم خلق كو-سو, الحبر الأعظم المكلف من قبل كبار الآلهة بإقامة الطقوس [والاحتفالات في المعابد]

ثم خلق الملك، لإمداد [معابد الآلهة]
وأخيرا خلق البشر لتنفيذ [...]
[...] آنو، إنليل وأيا [...]...»[47].

ومطلع هذه الصلاة كما جاء في النص يبدأ بالتذكير بزمن البدء، كيف أن الإله "آنو" خلق السماء، وأن الإله "أيا خلق بدوره مقره الأبسو، وتَشهدُ عملية الخلق مجموعة من الآلهة الثانويين الذين سيعهد إليهم في تكوين يدور حول مركزية المعبد الأول؛ أي مقرّ أيا في الأبسو، وفيما بعد في المعابد الأخرى يعهد إليهم بأعمال ومهام مرتبطة بتجديد بناء المعابد، وبالطبع فان مواد البناء تم توفيرها عبر الأبسو مصدر الصلصال لصنع الآجر وكذلك المقاصب، كما تم توفير انتظام التقدمات في المعابد عبر خلق البحار والماشية الخ، التي تتميز بإنتاجها الغزير من أجل إمداد الآلهة، وكل ذلك تمَّ في كون أسطوري إلهي، ثم عُمد إلى خلق الملك لتموين معابد الأرض وخلق البشر لتعميم الرخاء على الأرض. وفي مقتطف تكويني آخر عائد لطقوس الإعداد لوضع أجرة أساس المعبد والتعاويذ التي ترافقها، يذكر النص بالتدخل البدئي لثالوث الآلهة العظام: "آنو" و"أنليل" و"أيا"، وخلافًا لما ورد في النص السابق، فإن هذا المعبد الأول لم يُشيد ضمن كون أسطوري بل في عالم البشر، وكان بمثابة المركز الذي انتشرت حوله البلاد، كما أن هناك إشارة لدور الملك في مرحلة عُرفت ضمنيًا خلق البشر، وحددت لهم دور الخدمة الغذائية تجاه الآلهة[48]، حيث جاء في النص:

«...[...]
عندما قام آنو، أنليل وأيا بتصميم
السماء والأرض
ابتدعوا طريقة ماهرة لتأمين قوت الآلهة:
أعدو لأنفسهم في البلاد مقرًا مبهجًا،
ودخل (؟) الملك بمهمة تأمين
دخل-مستمر يلائم اختيارهم،
كما فرضوا الخدمة- الغذائية تأمينًا لطعام
الآلهة المختار
وأحب الآلهة مقرهم هذا
وبذلك وضع الآلهة يدهم على ما أصبح

البلد الرئيسي للبشر»[49].

ولأن دمار المعبد في سومر هو الفاجعة الأشد التي يمكن أن تقع للمدينة وشعبها، فإن مثل هذا الحدث كان يثير في وجدان الكاتب أو الشاعر عواطف وأحاسيس يعبر عنها بقطعة نثرية أو قصيدة شعرية، يرثي فيها بمرارة وألم عميقين ما طال المدينة وخاصة معابدها من خراب ودمار، وقد نظموا العديد من المراثي للبكاء على خراب معابدهم، وقد أصبحت هذه المراثي تُشكل جُزءًا من الأناشيد الدينية التي تتلى عند إقامة الطقوس بما فيها بناء المعابد، ومن أبرز المراثي التي تم الكشف عنها "مرثية دمار أور"، ترسم صورة الخراب الذي جرى لـ "أور" ومعبدها "الأكيشنوغال" بعد أن هاجمها العيلاميون[50]، ومرثية "بلاد سومر وأور" وتعد أكثر شمولاً من الأولى في تفاصيلها وأكثر تأثيرًا، فقد عرف مؤلف هذه المرثية انتفاء الكلمات المعبرة عن الحزن العميق، ووضع المستمع في جو من الكآبة وضيق الصدر تنقله رتابة النواح وتكراره[51].

وعن مدينة بابل مرثية أكادية "مرثية بابل" كتبت خلال الثلث الأول من الألف الأول لما قبل الميلاد، على يد كاتب بابلي اسمه "كبتي-إيلاني-مردوك"، تروي قصة بطل هدّام يدعى "ايرا" يخلق الهياج ويشجع على الثورة العمياء، فكانت بابل ومعابدها ضحية لهمجيته وغطرسته[52]، وعليه يمكن القول على ضوء المراثي التي ابتدعت للبكاء على خراب المدن ومعابدها بوجه خاص أنها تعكس ما للمعبد من أهمية في حياة المجتمع العراقي القديم المتدين، فهو مسكن الإله حامي المدينة ورعاياها، لهذا لم يدخر الملوك أي جهد في تعمير مدنهم بالمعابد نزولاً عند الرغبة الإلهية بل والمساهمة حتى في البناء، وفي هذا يقول نص مسماري يعود للمك "نابو-بولصر" جاء فيه: « من أجل سيدي مردوخ، من أجله احني رقبتي، وأجمع الرداء الذي يحمي ملكي، وأحمل الطوب والطين على رأسي»[53].

وعلاوة على مساهمة الملك في عملية البناء، عمد إلى تجهيز المعابد بأفخم الأثاث وأجمله المصنوع من المعادن النفيسة، وفي هذا تقول النصوص المسمارية على لسان "نبوخذ نصر الثاني":« لقد رصعت بالذهب الخالص أثاث العبادة في هيكل الايساجيل، وزينتُ مركب مردوخ بالحجارة الكريمة والصياغة، وقد كانت مثل النجوم في السماء، ولقد هداني قلبي لبناء الهيكل، فوضعت تصميمه في مخيلتي»[54]، ويقول كذلك: « وبالنسبة لمركب هوزيكو الخاص بالايساجيل وسيلة نقل مردوخ، فقد جهزته بصور

وحوش لها رأس ثعابين، وزينته بجواهر تلمع كالنجوم، وعلى أمواج الفرات المقدس جعلت رونقه يتلألأ...»[55].

خاتمة:

يتضح جليا مما سبق أن سكان حضارة وادي الرافدين عنوا ببناء المعابد بيوت الآلهة، وحرصوا على الالتزام بأداء الطقوس وتلاوة الشعائر الدينية اللازمة، لان ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على رضا الآلهة وتحقيق حياة سعيدة، لان غضب الآلهة مدعاة لإنزال العقاب مما يسبب البؤس والشقاء لحياتهم، ولأهمية المعابد فقد فرّدها الملك حمورابي في شريعته بمجموعة من المواد القانونية، وذلك لحماية حرمة المعبد من أي تدنيس أو أي اعتداء قد يلحق بممتلكاته، فإذا سرق رجل متاع معبد فانه يقتل[56]، ونفس العقوبة تسلط عليه في حالة ما إذا سرق شخص ثورا أو نعجة أو جحشا أو خنزيرا أو قاربا تابعا للمعبد و لم يكن لديه ما يكفي لدفع التعويض[57].

الهوامش:

([1])- فاضل عبد الواحد علي، **من سومر إلى التوراة**، ط2، سيا للنشر، مصر، 1996، ص83.

(2)- نور الدين حاطوم وآخرون، **موجز تاريخ الحضارة**، ج1، مطبعة الكمال، مصر،1965، ص166.

(3)- جورج روو، **العراق القديم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص188.

([4])- الملاط: هو الطين الذي يطلى به الحائط، ويتألف من الكلس والرمل.

(5)- مؤيد سعيد، **العمارة من عصر فجر السلالات إلى نهاية العصر البابلي الحديث**، حضارة العراق، ج3، دار الحرية، بغداد، 1985، ص97.

([6])- نور الدين حاطوم وآخرون، المرجع السابق، ص 98.

([7])- وليد الجادر، **العمارة حتى عصر فجر السلالات**، حضارة العراق، ج3، المرجع السابق، ص83.

([8])- أنطوان مورتكات، **الفن في العراق القديم**، تر:عيسى سلمان، طه التكريتي، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد.

1975 ، ص64.

([9])- مؤيد سعيد، (**العمارة من عصر فجر السلالات**...)، **حضارة العراق**، ج3، المرجع السابق، ص ص113-114.

(10)- ثروت عكاشة، **الفن العراقي- سومر وبابل وآشور-** مطبعة فينيقيا، بيروت، (د.ت) ، ص116.

(11)-Hérodote, **Histoires**, Livre I, traduit par : Legrand, Les belles lettres, paris, 1936,179.

([12])-مؤيد سعيد، (**العمارة من عصر فجر السلالات**...)، حضارة العراق، ج3، المرجع السابق، ص 99-103.

([13])- هورست كلينكل، **حمورابي البابلي وعصره**، تر: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة، سوريا، 1990، ص32.

(41)- مؤيد سعيد، (**العمارة من عصر فجر السلالات**...)، حضارة العراق، ج3، المرجع السابق، ص102-103.

(51)- هورست كلينكل، المرجع السابق، ص32.

(61)- خزعل الماجدي، **متون سومر**، الكتاب الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1998، ص323.

(71)- فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص81.

(81)-عبد الرضا الطعان، **الفكر السياسي في العراق القديم**،دار الخلود للنشر والتوزيع، بيروت،1981، ص391.

(91)- فراس السواح، **موسوعة تاريخ الأديان-مصر، سورية، بلاد الر افدين، العرب قبل الإسلام**- الكتاب الثاني، دار علاء الدين، دمشق، 2004، ص ص209-210.

(20)- أنطوان مورتكات، **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، تر: توفيق سليمان، مطبعة الإنشاء، دمشق،1967، ص111

(21)- ثوركليد جاكوبسن وآخرون، **ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى**، تر: جبرا إبراهيم جاد، مر: محمود الأمين، مكتبة الحياة، بغداد، 1960، ص223-224.

(22)- فراس السواح، المرجع السابق، ص210.

(23)-عبد العزيز صالح، **الشرق الأدنى القديم**، الكتاب الثاني، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1973، ص425.

(24)- ثوركليدس جاكوبسن وآخرون، المرجع السابق، ص224-225.

(25)- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص425-426.

(26)- جورج روو، المرجع السابق، ص230.

(27)-Gustave Fougères, **Les Premières Civilisations**, Alcan, Paris, 1926, P96.

(28)- فراس السواح، ، المرجع السابق، ص211.

(29)- ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص290.

(30)- فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص82-83.

(31)- صالح لمعي مصطفى، **عمارة الحضارات القديمة-المصرية،ما بين النهرين, اليونانية, الرومانية**- دار النهضة العربية, بيروت، 1979، ص58.

(32)- ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص206.

(33)- فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص82.

(34)- عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص409.

(35)- نجيب ميخائيل إبراهيم، **مصر والشرق الأدنى القديم-حضارات الشرق القديم العراق وفارس**- ج6، دار المعارف، لبنان، 1967، ص302-303.

(36)- فاروق ناصر الراوي وآخرون، **المدينة والحياة المدنية**، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988، ص132.

(37)- أنطوان مورتكات، (**تاريخ الشرق الأدنى القديم**)، المرجع السابق، ص114.

(38)- فراس السواح، المرجع السابق، ص211.

(39)- فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص82.

(40)- خزعل الماجدي، المرجع السابق، ص315.

(41)- فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص82.

(42)- عامر عبد الله الجميلي، **الكاتب في بلاد الرافدين**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص91.

(43)- قاسم الشواف، **ديوان الأساطير-سومر وأكاد وآشور**- الكتاب الثاني، ط1، دار الساقي، بيروت، 1997، ص62.

(44)- نفس المرجع، ص425.

(45)- نفسه، ص62.

(46)- نفسه، ص425.

(47)- قاسم الشواف، المرجع السابق، ص63-64.

(48)-نفس المرجع، ص62.

(49)-نفسه، ص65-66.

(50)- فراس السواح، المرجع السابق، ص213.

(51)- طه باقر، **مقدمة في أدب العراق القديم**، دار الحرية، بغداد، 1976، ص ص215-216.

(52)- قاسم الشواف، المرجع السابق، ص378.

(53)- صالح لمعي مصطفى، المرجع السابق، ص58.

(54)- André Parrot, **Babylone et Mésopotamie-Les Hauts lieux de L'histoire**, France, P144.

-(55)Marguerite Rutten, Babylone, PUF, Paris, 1958, P76.

(56)- ينظر المادة (06) من قانون حمورابي،مجموعة من المؤلفين، شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم، تر: أسامة سراس، الطبعة الثانية، دار علاء الدين، دمشق، 1993، ص95.

(57)-ينظر المادة (07) من قانون حمورابي. نفس المرجع، ص80.